والديمقراطية، أي ليتقدم كل فكر برؤيته، سواء كان دينياً أو يسارياً أو برجوازياً قومياً أو ليبرالياً أو أية توليفات أخرى... لا يمكن التصدي لهذه الموضوعات الكبرى، وهي موضوعات تواجه العرب منذ قرنين أو أكثر، مع حجر الفكر على الناس، فالبشر في كل مكان قدحوا زناد تفكيرهم وساروا في طريقهم.

والمسألة تتطلب أول ما تتطلب، كما كتب الدكتور عادل ضاهر، إطلاق طاقات العقل وعدم تقييده بمرجعيات تصادره وتحد من إبداعيته. فالتحرر من سيطرة الكنيسة على العقل والسياسة أطلق طاقات أوروبا وسواها، أي ما يسمى العلمانية، وإن لم يكن دور الدين في المنطقة العربية تاريخياً كما حاله في أوروبا. فالدين في تاريخنا كان حاملاً ومحمولاً، وهو ركن ركين في الوعي الشعبي، ولكن كيف يحضر في السياسة اليوم، أو كيف تفهمه الحركات السياسية/ الدينية؟ ثمة فارق هائل بين تجربة حزب الله وتجربة الإخوان المسلمين في سوريا على سبيل المثال، «وإسلام النفط» حسب تعبير جابر عصفور شيء، وإسلام المقاومة شيء آخر، وإسلام يبني تنمية إنتاجية وإنساناً مستقبلياً شيء ويبدد الثروات على نزعة استهلاكية منفلتة شيء آخر. وإسلام حداثي بلغة محمد أراكون شيء وإسلام ماضوي سلفي شيء آخر... مستنداً إلى كتاب ابن رشد (فصل المقال ما بين الحكمة والشريعة).

إنني أسوة بمن جايلوني إنخرطنا في المسيرة التحررية بدافعية مبدئية، حلمنا الأول والأخير تحرير الشعب والوطن في انتماء جذري للأمة وهويتها ومركباتها، قد أصطدمنا بحقيقة ممّضة بأن استحقاقات وشعارات ومقولات النهضويين العرب منذ قرن ويزيد لم تنفك قائمة.

لقد كانت هذه المقولات والشعارات جزءاً من ثقافتي حين كت في بداية العشرينات، وقام الدكتور ماهر الشريف بنبش جذورها وتبويبها على نحو ممتاز في مؤلفه (رهانات النهضة في الفكر العربي).

إذ لا زلنا أمام الإشكالية التي أثارها محمد عبده عن علاقة الدين بالعقل، الإسلام بالعلم وضرورة الاجتهاد والثورة، العلاقة بين العرب والغرب كما أثارها بطرس البستاني، دور الثقافة والمثقفين، بل «أزمة المثقفين العرب» بلغة عبد الله العروي، بما يحيلنا إلى رفاعة الطهطاوي ودعوته للعلم والتربية السياسية، بل لقد تعاطى القائد السياسي أحمد عرابي بانفتاح وتفاعل مع المثقف محمد عبده والمثقف النديم على خلاف الكثير من القيادات السياسية العربية والدولة التسلطية. وأطروحة قاسم أمين عن إشكالية التراث والمعاصرة، ودعوته التحريرية للمرأة، وإشكالية العلاقة بين الإسلام والعروبة التي تطرق لها عبد الرحمن الكواكبي وصولاً إلى دعوته لفصل الدين عن الدولة، ووحدة العرب وإصلاح السياسة والدين ورفض الاستبداد، وسلامة موسى بمشروعه الفكري وبذرته التطورية المبنية على التناقض، والفيلسوف جمال الدين الأفغاني الذي أقر بالنزاع بين البحث الحر والعقيدة، داعياً إلى إسلام عقلاني ... إلخ

أما عن المرحلة الرأسمالية وإنجازاتها والتي بدات في أوروبا، وامتدت عالمياً، فثمة إضاءات كافية في متن الرسالة، والتناقض الأساس معها طبقياً حيث تسيطر احتكاراتها على الاقتصاد العالمي فتستغل الشغيلة من جهة وتنهب ثروات الشعوب وتسد الطريق أمام تطورهم من جهة أخرى، فهل يصدّقن أحد أن مئات الأشخاص يسيطرون على ٧٠٪ من السوق العالمية بيدهم قرار السلم والحرب والبذخ والجوع، حيث أكثر من مليار جائع